**المحاضرة 07**

**الاستشراق والأدب العربي المعاصر**

الاستشراق له معرفة بقوة تأثير اللغة العربية في السير والحركة والتقدم، وله خبرة بعلومها وآدابها وفنونها، فإن المتتبع لسير الحركات الفكرية في بلاد العروبة والإسلام, قد يتبين أن كثيرا من تلك الحركات قد اتخذت لبلوغ أغراضها صورا ثقافية مختلفة، وأنها تنادي دائما بالتحرر من قيود الماضي واطراح أعباء القديم

وأما المقصد في ذلك فهو التمكين للنفوذ الأجنبي متی نام وعي الأمة العربية، وتفرقت كلمتها، فنسيت تاريخها، وفقدت الثقة بتراثها، وأخذت بعض طوائفها أو أفرادها تردد صيحات مستوردة مسعورة لا تمت إلى روحها بأدنى الأسباب, وقد تبين ذلك المقصد منذ أواخر القرن الماضي, ومطلع هذا القرن في حملات «التغريب» التي شنها النفوذ الغربي وأعوانه، مصوبين هجماتهم إلى التراث العربي الإسلامي بوجه عام, وإلى اللغة العربية بوجه خاص، كما وقع في مصر وسوريا والسودان وبلاد المغرب العربي، كما بدت في فيض من الكتابات الاستشراقية ملأت الأسواق في أوربا وأمريكا, مثل كتابات سنوهير جور ونجه, ومرجوليوث, وزومر, وهويا, ولوی برتران, وغيرهم, فقد تقاسمت تلك الكتابات دعوات خطيرة اتجاه الأمة العربية ولغتها تمثلت في:

**أولا** : الدعوة إلى رسمية اللهجات المختلفة .

**ثانيا** : الدعوة إلى كتابة العربية بالأحرف اللاتينية .

**ثالثا** : الدعوة بأن الفصحى تقضي على قوة العرب الاختراعية .

إن هذه الدعوات قد بدأت معها حملات مسعورة تكثف من ناحية عن جمود الفصحى, وتعددها وبداوتها, وتخلفها عن حاجة العصر, وتلقي عليها مسئولية ما كان من تخلفنا وانحطاطنا، وتدعو من ناحية أخرى للعامية, وتضيف إليها مزايا من الفصاحة والسهولة والمرونة, والقدرة على التعبير عن مطالب الحياة العصرية, وترعى فيها الوسيلة لتثقيف جماهير الشعب وتعليم الأميين،

ومن هنا كانت الدعوات الثلاث من أخطر المشاكل التي أثارت الجدل والمناقشة بين رجال الفكر وأصحاب القلم في أرجاء البلاد العربية, منذ أن آثارها الاستشراق وحتى الآن، إذ فرض عليهم جميعا أن يتساءلوا : وهل تصلح لغننا العربية أن تكون أداة لمسايرة الحضارة ؟ وهل تضطلع بما يطلب منها للتعبير عن مقتضيات العلم, والفن, والصناعة, وهل يرجع التقصير إليها لا إلينا ؟ وهل هي من اللغات الميتة التي عفا أثرها كاللاتينية ؟ وقبل أن برد محمود تيمور وغيره على مثل هذه التساؤلات، رد عليها الاستشراق مؤثرا بذلك أشد التأثير في الأدب العربي الحديث، فدعى إلى اتخاذ العامية لغة للعلم والفن والأدب, ومطالبته بكتابة العربية بالأحرف اللاتينية، زاعما أن الفصحى هي التي تقضي على قوة العرب الاختراعية, مما يستوجب تحررهم من سيطرتها, إذا أرادوا أن يلحقوا بركب التقدم .

ومن أجل هذا كله قام الاستشراق بإدخال تدریس لهجات العرب المختلفة في مدارسهم, وجامعاتهم ومعاهدهم, وأسند تدريسها في أول الأمر إلى أبناء العرب أنفسهم, أمثال محمد عياد الطنطاوي، وميخائيل الصباغ، وأحمد فارس الشدياق, وغيرهم، ثم أخذ غلاته في دراسة لهجات العرب المتعددة, وإخراج مؤلفاتهم فيها، وهي كثيرة اختص كل منها بدراسة لهجة من لهجات الأقطار العربية, مثل اللهجة المصرية, والسورية, والعراقية, والتونسية, والمراكشية وغيرها .

وإذا كان علماء العرب المذكورون قد ألفوا كتبهم في عاميتهم بدافع تسهيل دراسة العربية لتلامذتهم الأجانب، فإن علماء الاستشراق الذي ألفوا كتبهم فيها قد فعلوا ذلك من أجل القضاء على العربية الفصحى, وإحلال العامية محلها ... لأن روح العداء للعربية الفصحى, والرغبة في إقصائها عن الميدان الأدبي لم تنتشر إلا عن طريق الأجانب, واستغلالهم لدراسة العامية في بث هذه الروح بين أبناء العربية. هكذا ظهر سنة 1880م كتاب قواعد العربية العامية في مصر لولهم سبنيا الذي يعد الرائد الأول لكل من كتب في العامية المصرية من الأجانب .., ومنه انبثقت الدعوة إلى اتخاذ العامية لغة أدبية، وفيه أيضا اقترح اتخاذ الحروف اللاتينية لكتابة العامية, تلك الحروف التي نودي باستخدامها فيما بعد لكتابة العربية الفصحى, وبعده بأعوام ظهر سنة 1890م کتاب اللهجة العربية الحديثة في مصر : لكارل فولرس الذي نهج نهج سبيتا, فاستنبط حروفا لاتينية لكتابة العامية, ودرس قواعدها, وأورد كثيرا من نصوصها ..., واقتصر مثل سبيتنا على دراسة لهجة أهل القاهرة, ولم يفته مثل سبيتا أن يندد في نهاية مقدمته بجمود العربية الفصحى.

ثم ظهر سنة 1901م کتاب « العربية المحلية في مصر» لسلين ولمور الذي اتجه فيه وجهة سبيتا في دراسة العامية المصرية، سواء في دراسة قواعدها, وجمع نصوصها، أم الدعوة إلى كتابتها بحروف لاتينية, واتخاذها لغة أدبية، وكانت له ومسائله الخاصة في تدعيم تلك الدعوة التي صادفت هوى في نفسه, فاستغلها ليحقق هدفا من أهداف الاستعمار البريطاني, وهو فصل المسلمين والعرب عن ماضيهم, وتفتيت وحدتهم اللغوية بالقضاء على العربية الفصحى، وأخيرا ظهر منة 1926م کتاب «المقتضب في عربية مصر » لفيلوت وباول اللذان اتجها فيه وجهة عملية, لتسهيل دراسة العامية المصرية, تلك التي ضاعت كرامتها على حد قولهما, حتى أصبحت لا وجود لها كلغة مكتوبة، ولم يفتهما أيضا أن يرددا الشكوى من صعوبة العربية الفصحى, وخاصة حروفها الحالية من حروف الحركة » .

تلكم هي الكتب الرئيسية التي ناقشتها نفوسة زکریا سعید بإسهاب, معتمدة عليها في دراستها الرائعة لتاريخ الدعوة إلى العامية في مصر, وأثر هذه الدعوة في الفكر والثقافة والأدب, قائلة: هذه كتب أربعة من الكتب التي ألفها الأوربيون في العامية المصرية, أوقفتنا على منبع الدعوة إلى اتخاذ العامية لغة للكتابة والأدب، وعلى منبع الدعوة إلى استبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية، وعلى مصدر الشكوى من صعوبة العربية الفصحى التي يتآمر على القضاء عليها، وقد وصلت إلينا هذه الدعوات منتشرة تحت ستار البحث العلمي لدراسة لهجة محلية من اللهجات العربية .

وهكذا خلق الاستشراق معضلة أصبحت باعتراف علمائه من المشكلات الرئيسية التي يواجهها الأدباء العرب المحدثون, وهی ازدواجية اللغة حيث أخذها بعضهم لغتهم الرئيسية، على الرغم من أن التراث العربي يبرهن لهم كل يوم على أنه أقوى من كل محاولة يقصد بها النيل من العربية الفصحى, والنزول بها من مقامها المسيطر, فهي لغة المدنية الإسلامية بأسرها, ورمز لغوي لوحدة عالم الإسلام في الثقافة والمدنية.

ومن هنا إذا كانت اللغة العربية قد ظلت خلال تاريخها كله ملتصقة التصاقا مصيرية بالجماهير العربية الإسلامية العريضة، وقامت بمساعدتها على تنمية وعيها النضالي, وإشعال إحساسها بماضيها، وإيقاظ شعورها بمستقبلها الذي يفرض عليها القيام ببنائه على أساس ترانها ولغتها وأدبها.

وبعد أن أشرنا إلى تلك الدعوات الثلاث وخطورتها، إذ استهدفت جميعها القضاء على اللغة العربية, يجدر بنا أن نتساءل هل أثرت هذه الدعوات في الحياة الأدبية المعاصرة, ويمكننا أن نجيب بدون أدنى تردد: نعم، إنها أثرت فيها بقدر كبير، ولقد أثرت أول مرة في الصحافة, وكتبت بالعامية كما فعلت مجلة « المقتطف » عام 1881م, ومحلة «الأزهر» عام 1893م، ومجلة الهلال عام 1929م عقب محاضرة ولکوکس المشهورة.

وهل لنا أن نذهب بعيدا من کتاب بر البلاغة العصرية, واللغة العربية لسلامة موسي الذي جند قلمه الطيع وأسلوبه اللين ومنطقة السهل للدعوة إلى نبذ الفصحى التي ورثناها من بدو الجاهلية في عصر الناقة, ويراد لنا أن نتعامل بها في عصر الطائرة ومن كتاب الحروف اللاتينية لكتابة العربية لعبد العزيز فهمى الذى لفق مؤامرته على العربية, بالدعوة إلى المحافظة على الفصحى, وجعل قارئ ما هو مكتوب بها لا يلحن في قراءته, ولا يخطئ، کما لفق كمال أتاتورك جريمته على التركية بتغيير الحروف العربية فيها بالحروف اللاتينية، وكتاب « نحو عربية ميسرة ، لأنيس فريحة قال: هذه اللهجة العربية الجديدة المشتركة بين الطبقات العربية المتعلمة, والتي خلقتها ظروف الحياة العربية الجديدة لها خصائص تجعلها مغايرة للفصحى، وفي الوقت ذاته تجعلها لغة مرنة سلسلة طيعة, تصلح أن تكون اللغة العربية الأدبية, وأهم خصائصها : اسقاط الإعراب, .. وأن يكون لها أدب, .. وأن تكتب بالحروف اللاتنية, .. وأن يقبلها العرب , هكذا يطالب أنيس فريحة العرب بأسرهم أن يشتركوا معه في الجريمة.

وإذا أردتم أن تتأكدوا من هذا الذي نقوله ، فارجعوا إلى مسرحيات يعقوب صنوع, وعمان جلال, ومحمد تیمور, وغيرهم، وروایات زینب لمحمد حسين هيكل ، وعودة الروح» لتوفيق الحكيم, والشيخ جمعة لمحمود تيمور, وغيرهم ، أو اذهبوا إلى المسارح الحديثة من الخليج إلى المحيط, أو اقرأوا ما الجنس الثالث ليوسف إدريس, ونور الظلام ، لرشاد رشدی، و"جوما" لمصطفى محمود، وغيرها من أعمال الأدباء العرب المعاصرين.

ونشيد هنا بمحاولات صلاح عبد الصبور باستخدام اللغة العربية الفصحى في مسرحياته مثل ، الحلاج ، و ليلى والمجنون, وهو بعد أنيموت الملك،، التي تعد من نماذج يجب أن يحتذى بها في هذا الميدان والأصالة والاتجاه, وخاصة في مسرحيته الأولى التي استمدها من تراثنا القديم بعد أن استلفتت نظره درامات ماسينيون عن الحلاج, وهذا ما يعترفه يه هو شخصيا حينما يقول : وقد كان لمقال ماسينيون، المنحى الشخصي في حياة الحلاج ، وكتاب وأخبار الحلاج ، الذي حققه ماسينيون وعلق عليه مع برل کراومي, أكبر الأثر في سيرة هذا المجاهد الروحي العظيم وفي مقال ماسينون إشارة إلى الدور الأجتماعي للحلاج في محاولته إصلاح واقع عصره .

والذي يهمنا الآن أن نفتح بحثا ولو بإيجاز إلى أهمية كشف الاستشراق عن تأثير الأدب العربي في غيره من الآداب، وأهمية ذلك بالنسبة للأدب العربي الحديث والمعاسر, ولابد أن نعترف منذ البداية أن مثل هذه الدراسة لا تزال في مهدها، وربما يرجع ذلك إلى صعوبتها, وتشعبها معا، إذ لم يكتشف في ميدانها حتى الآن إلا قليل تأكيدة حاسمة، لا سبيل إلى إنكاره أبدا، إن الأدب العربي قد قدم في فترات ازدهاره للآداب الأخرىأشكالا شعرية ونثرية ومسرحية، وأطلعها على مضامين إنسانية وأدبية، وفكرية وكشف لها أساليب جمالية وتعبيرية وفنية ، ويعتبر هذا الكشف بالنسبة لأدبنا المعاصر الذي يتطلع إلى آفاق جديدة بالغ الأهمية, لأنه يعطي دليلا على إمكانية العرب للإعطاء لا للأخذ فقط, كما يزعم بعضهم